الفصل الأول

العصر الحديث وبداياته الفكرية والعلمية والتربوية

لا يستطيع إنسان أن يكشف لك عن شيء،
إلا إذا كان غافياً في فجر معرفتك
جبران

تمهيد:

تُعد الحضارة العربية، واحدة من أقدم الحضارات الإنسانية الحية، التي أشاعت فكراً وعلماً وثقافة على مدى آلاف السنين، وما تزال تمارس هذا الدور الإنساني بوتائر متباينة، تبعاً لمراحل تطورها التاريخي، عبر العصور المختلفة. لقد ساهم العرب في بناء الحضارة العالمية من خلال الاختراعات والمكتشفات العديدة، التي قدموها للعالم، منذ آلاف السنين، منذ حضارة بابل وسومر وأكاد ودمشق وصيدا وبيروت وأريحا وإيلا... وغيرها. بالإضافة إلى اختراعهم الكتابة، التي ساهمت بشكل كبير، في حفظ وصياغة وبلورة الفكر الإنساني، منذ الألف الثالث قبل الميلاد. وهذا ما دفع العالم والمستشرق الأمريكي صموئيل كرامر، للقول: " إن التاريخ يبدأ في سومر (غولايف، ١٩٨٩، ص ٢٠).

لقد أقام العرب الأوائل حضارات تركت بصماتها على مسيرة التطور الفكري للإنسان. وعلى سبيل المثال، حضارة الإغريق والحضارة اليونانية والحضارة الرومانية والحضارة الفارسية والهندية..الخ. كلها تعود بأصولها التاريخية والفكرية والثقافية والتربوية والميثولوجية، إلى الحضارة العربية

القديمة، لكن مثل هذه الحقائق الراسخة اليوم، قلة من النـــاس يعرفونهـــا أو يؤمنون بها.

يُعد التراث بمفهومه العام، الوعاء القومي الحضاري المتنامي لمجتمع مـــن المجتمعات، يشمل تاريخه وفكره وفلسفته وايديولوجيته الـــسياسية والاقتــصادية والعقائدية. وهذا التراث ليس مرتبطاً بمرحلة تاريخية محددة، بل هـــو تـــاريخ مستمر على مر العصور.

من هنا نرى أن التراث العربي لا ينتمي إلى عصر من العـــصور، ســـواء أكان عصر ما قبل الإسلام، " العصر الجاهلي " أم العصر الراشدي، أم العصر الأموي، أم العباسي أم الأندلسي، أم عصر الانحطاط أم العصور الحديثة. وإنما ينتمي إلى جميع هذه العصور، التي كان فيها الإنسان العربي، يقـــدم عطايـــاه ومنجزاته الفكرية والثقافية والحضارية، ويبرهن في كل مرحلة على أنه قـــادر على المساهمة في بناء الحضارة الإنسانية، على الأصعدة كافة.

كما ويُعد التراث العربي مصدراً أساسياً لتجديد التربية العربية في العـــصر الحاضر وفي المستقبل أيضاً، لما فيه من مفاهيم ومبادئ وخبـــرات وتجـــارب، يسعى الفكر التربوي الحديث إلى اعتمادها وتأصيلها في الناشئة. بالإضافة إلى معطيات العصر الراهن، حيث يتفاعل الماضي مع الحاضر. وهذا التفاعـــل مسألة في غاية الأهمية في صوغ نظرية فلسفية تربوية عربية حديثـــة، تحـــدد للإنسان العربي مكانه الصحيح في بناء مجتمعه، وفي مساهمته الفعالة في بناء صرح الحضارة الإنسانية.

ولكن من الطبيعي أن نشير هنا، إلى أن التراث العربي لـــم يكـــن مـــضيئاً مزدهراً على مر العصور. لقد مرّ التاريخ العربي بمراحل مختلفة من التطور الانحطاط، وذلك نتيجـــة جملـــة مـــن المتغيـــرات، الـــسياسية والاقتـــصادية

والاجتماعية والثقافية والفكرية...، سواء أكان ذلك على الصعيد القومي أم على الصعيد العالمي.

من السمات التي يتميز بها المجتمع العربي في العصر الحديث " التخلف " في جميع مجالات الحياة، قياساً إلى المستوى الذي وصلت إليه المجتمعات المتقدمة. وهذه السمة تعود بجذورها إلى مرحلة انهيار الدولة العربية الإسلامية، في نهاية العصر العباسي، على يد المغول، وسقوط عاصمتها بغداد عام ١٢٥٨م. حيث " دخل المجتمع العربي في مرحلة سبات طويلة، وإن قطعتها بعض الصحوات القليلة، فانه ظل قروناً ممتدة، يجتر ذاته دون أن يبدع شيئاً جديداً، إلا في حالات نادرة " (عبد الدائم، ١٩٩١، ص ٢٤٨).

وهذا التخلف في الإبداع، يشمل شتى جوانب الحياة، ويتجلى واضحاً في ميدان التربية وفلسفتها ومناهجها وطرقها وأهدافها، وفي صناعة الإنسان العربي، القادر على مواجهة ركب الحضارة العالمية، بعقلية علمية بعيدة كل البعد عن التراكمات الفكرية والميثولوجية، التي ساهمت بطريقة مباشرة، وفي كثير من الأحيان بطريقة غير مباشرة، في أدلجة هذا " العقل العربي "، في الوقت الذي بدأت شمس الحضارة والمعرفة تسطع في الغرب.

إن غياب الفكر النقدي والإبداعي لدى المجتمع العربي " والذي كان مرهوناً بجملة من العوامل السياسية والاقتصادية والفكرية... "، منذ غياب شمس الحضارة العربية الإسلامية، كان من الأسباب المباشرة التي ساهمت في ترسيخ الفكر التربوي العربي القديم، ودعت إلى المحافظة عليه، بشتى السبل، كونه ساهم في زمن ما، في بناء حضارة عربية إسلامية مترامية الأطراف. في الوقت الذي نسعى فيه لإعادة التلألؤ لهذه الحضارة، علينا أن نزيل عنها غبار السنين. إن هذا الطرح يلاقي الكثير من النقد في العصر الحديث، وخاصة عند

الذين لا يدركون جيداً مفهوم الزمن، أو الرؤية الديناميكية للزمان، بكونه متجدداً على الدوام، كما قال: هيرقليطس " الشيء الثابت في الحياة، هو التغيّر الدائم ".

إن رفض التطور والتغيير والتحديث في المجتمع العربي الإسلامي، من الأمور الأساسية التي أدت إلى فشل الكثير من التجارب العلمية والتنموية في المجالات الحياتية كافة. وخاصة في مجال التربية، التي ما تزال تتخبط بين مفاهيم الأمس، ومعطيات اليوم. ناهيك الحديث عن الرؤية المستقبلية للتربية العربية، تربية الإنسان العربي على أعتاب حضارة جديدة تكاد أن تكون دخيلة عليه، بعيدة كل البعد عن واقعه وآماله وثقافته، وحتى أحلامه.

والحق أن هذه الظاهرة – ظاهرة المحافظة على الماضي – بكل قيمه ومبادئه، ورفض التغيير والتحديث، تُعد من أخطر ظواهر التخلف وأعمقها أثراً لكونها ظاهرة يصعب اجتثاثها. ذلك لأنها تضرب بجذورها في أعماق حياة الإنسان. إنها ترتبط بما ألفه وعرفه، وبما ألف آباؤه وأجداده وعرفوا، وتحمل بالتالي جانباً من القدسية، أو جزءاً من النشوة والحنين إلى الماضي (عبد الدائم، ١٩٩١، ص ٢٥٤).

العصر الحديث وبداياته الفكرية والعلمية والتربوية:

بدأ العدّ التنازلي للحضارة العربية، منذ سقوط بغداد، وانهيار الدولة العربية الإسلامية، التي شكلت رمزاً من رموز الوحدة العربية الإسلامية، حيث دمرت مقومات الحضارة السياسية والاقتصادية والثقافية، بوحشية نادرة على يد المغول ومن ثم التتار. وانتقلت السلطة السياسية إلى المماليك، الذين حكموا مصر بين عامي (١٢٥٠ و ١٥١٧)، أي إلى بداية الاحتلال العثماني للوطن العربي، الذي أدى إلى فوضى اجتماعية واقتصادية..، انعكس ذلك على المستويات الفكرية والعلمية والتربوية والتعليمية والثقافية برمتها، وكادت أن

تضيع الهوية العربية. وبقيت البلاد العربية في ثبات دام أربعة قرون من الزمن، في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تبني حضارتها على الصعد كافة.

وكان اهتمام الأتراك بالشؤون العسكرية أكثر من اهتمامهم بالشؤون العلمية والثقافية. لهذا وصلت الحضارة الإسلامية والوطن العربي، في أثناء حكمهم، طوراً طويلاً من التدهور والتخلف. ونتج عن ذلك بعض الظواهر السلبية، التي استمرت في التعبير عن نفسها حتى العصر الحديث ومن بينها:

•- ركود الحضارة الإسلامية لعدم القدرة على تغذيتها بالتشجيع المعنوي والمادي، وإغلاق الشرايين، التي كانت تصل بينها وبين الثقافات الأخرى. مما أدى إلى ضعفها وضمور مراكزها، باستثناء الأزهر في مصر، والقيروان في المغرب العربي، فكان فيهما حفاظ على الحركة العلمية العربية والإسلامية، بشكل ما.

•- إبعاد شعوب المنطقة عن المشاركة في الحكم والإدارة.

•- أفقر العثمانيون البلاد العربية، بسياستهم الاقتصادية التي كانت تقوم على فرض الضرائب على الناس، بدون وجه حق، مع إهمالهم مرافق البلاد، فضلاً عن تحول طرق التجارة العالمية، عن منطقة البلاد العربية، بسبب الكشوف الجغرافية (الشريف وآخرون، ١٩٧٩، ص ٦٩ – ٧٠).

وهذا ما أدى إلى جملة من العوامل الثقافية والتربوية والاجتماعية السلبية التي هيمنت على الواقع العربي. فانقطع الناس عن العلم، وسادت بين رجال الدين نزعة التقليد والوقوف عند الأحكام السابقة.

وانتشر الشك بالمنطق والفلسفة، وكثر من يهاجمها ويعدهما مصدراً لفساد العقيدة والأخلاق، وأمر بعض الحكام بإحراق كتبهما، ومعاقبة المشتغلين بهما... وانتشرت الأمية انتشاراً كبيراً، وتعددت اللهجات بين الأقطار العربية.

إن مجمل العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية والسلبية، التي كانت مهيمنة في ذلك الوقت على المجتمعات العربية، أثرت، بشكل كبير، في واقع التربية والتعليم. وعلى الرغم من زيادة عدد الكتاتيب والمدارس، فإنها مع ذلك كانت زيادة اقتصرت على الجوانب الكمية، ولم يصاحبها تحسن في نوعية التعليم، الذي يقدم للناشئة. بل العكس هو الصحيح، فقد أصبحت المناهج في المدارس العالية مفروضة من الحكام ومقصورة على علوم الدين واللغة، بقصد الدعاية السياسية، وتخريج الموظفين في الغالب. واقتصر دور المدرسين على التلقين والتقليد دون أي مبادرة ذاتية منهم، فبات الفكر والثقافة في حالة جمود وانغلاق تامين.

بهذا الواقع، واجه العرب عامة مطلع القرن التاسع عشر، والتحدي الكبير من العالم الغربي وتطلعاته إلى التسلط والغزو والسيطرة والاستغلال، متسلحاً بالعلم الحديث، والأساليب الحربية الجديدة، وبالحركة السريعة وبالأهداف المحددة. وهكذا، كانت المواجهة بين أساليب التخلف ومظاهره. هذه المواجهة التي تطرح نتائجها علينا اليوم، مطالب عديدة، وعلى التربية العربية، مسؤوليات جساماً (الشريف وآخرون، ١٩٧٩، ص ٧٠).

النهضة الأوروبية وأثرها في تطوير التربية العربية:

كانت لنتائج الحروب الصليبية، أثرها الايجابي في تطوير النهضة الأوروبية الحديثة، وحتى أن بعض مؤرخي أوروبة كانوا يطلقون عليها " أسفار التعليمية لأوروبا الفتية إلى الشرق ". فقد نقل الصليبيون الكثير من معارف وفكر وثقافة الشرق العربي إلى أوروبا، عدا عن الوسائل والآلات التقانية، التي كانت تستخدم في البلاد العربية. وطرق الزراعة وتربية الحيوان، وأساليب العمارة والتكنيك. " لقد أثر الشرق العربي وثقافته، تأثيراً بالغاً في شتى جوانب الحياة

المادية والروحية في المجتمع الإقطاعي الأوروبي الغربي " (زابوروف، ١٩٨٦، ص ٣٣٢).

وسّعت الحملات الصليبية آفاق تصورات الأوربيين الغربيين الجغرافية، والاقتصادية والفنية والتجارية والعلمية... حيث أن الأوروبيين ومنذ القرن الثاني عشر، شرعوا في استخدام الورق، الذي كان مستخدماً على نطاق واسع في مصر وسورية ولبنان وفلسطين، والذي انتقل أولاً إلى ايطاليا عن طريق صقلية، وعن طريق الأندلس إلى فرنسا، ومنها في القرن الرابع عشر إلى ألمانيا، ومن ثم إلى باقي الدول الأوروبية.

ومن نتائج الحروب الصليبية، أنها ألهمت دول أوروبا الغربية " اسبانيا، البرتغال، فرنسا، إنكلترا... " ، فكرة البعثات الاستعمارية. "بالإضافة إلى مجموعة أخرى من العوامل السياسية والاقتصادية "، حيث أن شعارات الحملات الصليبية الجديدة، لم تعد تتجه ضد الإسلام وحسب، بل صارت تتجه أيضاً ضد كل العالم غير المسيحي. وحتى اكتشاف كولومبس للعالم الجديد عام ١٤٩٢، كان مموهاً بمصطلحات " الحملة الصليبية "، واعتبروه " فعل إيمان ".

لقد اختلف المؤرخون في تحديد بداية النهضة الأوروبية الحديثة، فمنهم من يؤرخ لها مع سقوط القسطنطينية على يد الأتراك عام ١٤٥٣، ومنهم من يؤرخ لها مع ثورة البولوني نيكولاس كوبرنيكوس– Copernicus ١٤٧٣– ١٥٤٣، وغيرهم يؤرخون لها باكتشاف أمريكا عام ١٤٩٢.

بدأت النهضة الأوربية، مع تغير جذري في العلاقات الإنتاجية الصناعية والتجارية...، التي كان لها انعكاس إيجابي في تطوير الفكر العلمي، في ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية متفاعلة، أدت إلى إيجاد فلسفة تربوية، اتسمت بالكثير من العلمية والمنهجية، وبعيدة كل البعد عن النزعات

الميتافيزيقية، التي كانت سائدة سابقاً. وبهذا استطاعت أن تجد لنفسها مكاناً متقدماً في المجتمعات البرجوازية، عكست من خلال المستوى الحضاري، الذي وصلت إليه، الحضارة الأوروبية بتجلياتها المختلفة، السياسية والاقتصادية والعلمية والتقانية والثقافية...

وجاء عصر النهضة، لينتزع عن الحملات الصليبية مجدها وبهاءها. فقد رأى المتنورون فيها وليداً مسخاً فظيعاً للقرون الوسطى الجاهلة. ووسم فولتير وروسو وغيرهم، بالعار أفعال الصليبيين، ونددوا بوحشيتهم واعتبروا حروبهم نتيجة لتعكر الذهن بنشوة الدين، وسخروا سخراً مراً من تاريخها (زابوروف، ١٩٨٦، ص ٣٤٣).

غير أن الحملات الصليبية استمرت في العصر الحديث، ولكن بأشكال ثقافية وفكرية وعقائدية مختلفة. فقد تجسدت:

أولاً: **بالحملات التبشيرية** إلى الشرق، متقنعة بسلاح الدين المسيحي السمح. ولكنها في الحقيقة ما كانت إلا بمثابة إيجاد أماكن نفوذ للدولة المستعمرة في بلدان الشرق المختلفة. وكانت تعد أيضا بمثابة مراكز للجاسوسية الاستعمارية. إلا أن هذه الحملات التبشيرية، كان لها بعض الجوانب الايجابية على التربية العربية، لما رافقها من فتح مدارس، ونشر ثقافة أوروبية متطورة، سواءً أكانت إيطالية أم فرنسية أم روسية أم إنكليزية... وغيرها.

ثانياً: **المدارس الأجنبية:** غير أن هذه المدارس كانت تشكل الشباب العربي تشكيلاً يناسب اتجاهاتها وأغراضها، سواء أكانت دينية اجتماعية أم سياسية... وتوجه تفكيرهم الوجهة، التي ترغب فيها. فقد كانت بعض الكتب الدراسية، التي تفرضها بعض المدارس على تلاميذها، موضوعة بطريقة استعمارية لا تتماشى مع الاتجاهات القومية العربية.

إن أقدم مدارس الإرساليات التبشيرية الفرنسية في لبنان، كانت مدارس " عينطورة "، التي أنشئت عام ١٨٤٣. وبعد عام، أنشأ القس وليم طومسون الأمريكي مدرسة في بيروت. وفي عام ١٨٧٤ أنشأ المبشرون البروتستانت " الكلية السورية "، التي تدرس العلوم باللغة العربية في بداية عهدها (سلامة، ١٩٦٣، ص ١٢٦).

وأول مدرسة للتعليم الحديث، وفق النظام الغربي، أنشئت في البحرين عام ١٨٩٣، أنشأتها الإرسالية الأمريكية. وكانت هذه المدرسة الأولى من نوعها في منطقة الخليج العربي. " كانت تدرس اللغة الإنكليزية والكتاب المقدس والحساب واللغة العربية ".

إن هذه المدارس وغيرها، خرجت أجيالاً من المثقفين والأدباء والمعلمين العرب، كان لهم دور بارز في اليقظة العربية، وفي مقارعة الاحتلال التركي، على الرغم من أن أهدافها استعمارية بالدرجة الأولى. غير أنه لا وطن للعلم والمعرفة. حيث استطاع العرب تعرف نظم المناهج التعليمية الأوروبية والأمريكية، وطرائق التدريس والمعارف العلمية المتطورة...

ثالثا: تطور وسائل الاتصال: أتخذ المبشرون الأمريكيون جزيرة مالطة، قاعدة لنشاطهم في الشرق الأوسط عام ١٨١٢. ولمّا كانت الطباعة وسيلة للدعاية، لا يمكن الاستغناء عنها، فقد قرر مجلس الإرسالية في أمريكا، تأسيس مطبعة في تلك الجزيرة، لتعنى بنشر الكتب والكراسات للتبشير بدين المسيح عليه السلام، حسب المذهب البروتستانتي. واستمرت المطبعة في عملها اثنتي عشرة سنة، أخرجت خلالها قرابة ٣٥٠ ألف نسخة من كتب وكراريس، ثم نقل القسم العربي من المطبعة إلى بيروت سنة ١٨٣٤.

كان المبشرون الأمريكيون يجوبون لبنان طولاً وعرضاً، يوزعون

منشوراتهم، ويؤسسون المدارس لجذب الناس. ومن هنا كان على الفرنسيين اليسوعيين، أن يفعلوا، على الأقل، الشيء ذاته. فقاموا يواجهون الدعاية بالدعاية. فعمدوا إلى إنشاء مطبعة عام ١٨٤٨، كانت إيذاناً ببداية نهر جديد من الكتب والمنشورات والمطبوعات الثقافية باللغات المختلفة، وبخاصة الفرنسية والإنكليزية.

أما ارتباط بلاد الشام مع الغرب، فكان بالإضافة إلى الإرساليات التبشيرية، كان بتحسين وسائل المواصلات البحرية وازدهار الحركة التجارية بين بلاد الشام وإيطاليا وفرنسا على وجه الخصوص. في البداية كان تأثير الثقافة الإيطالية في المشرق العربي، أقوى الثقافات في المنطقة، إلا أن الثقافة الفرنسية، أخذت تتغلغل شيئاً فشيئاً، حتى أصبحت دون منافس. علاوة على ذلك، كانت العلاقات الثقافية في المشرق العربي، ودول أوروبا الغربية، تتطور بشكل مطرد، وبخاصة عن طريق البعثات التعليمية إلى أوروبا، التي قام بها الباشا المصري محمد علي، الذي حكم بين عامي (١٨٠٥ - ١٨٤٩).

وصل محمد علي إلى السلطة في مجرى صراعه مع المماليك، معتمداً على المساعدة والمساندة من بعض الإقطاعيين المصريين المتبرمين من التسلط المملوكي، وكذلك بالاعتماد على كبار التجار المهتمين بتحويل مصر إلى دولة إقطاعية مركزية قوية. وكان الإصلاح الزراعي، وإنشاء الجيش النظامي والأسطول وتطوير الصناعة والزراعة وإعادة تنظيم جهاز الدولة، أموراً واجهت محمد علي وفرضت عليه جملة من الإصلاحات الشاملة. وكان عليه لتحقيق ذلك، أن يعتمد على منجزات العلم والتقانية الأوروبية، الأمر الذي كان يتطلب تغيراً جذرياً لمجمل حياة البلاد الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية. فاعتمد على البعثات المختلفة إلى أوروبا. وقد أتجه في البداية نحو ايطاليا أما

التوجه نحو فرنسا فكان عام ١٨٢٦. وجاء هذا التوجه، نتيجة تخطيط فرنسي، استطاع أن يربط مصر بفرنسا عن طريق "مساندات تموينيـة" تهـدف إلـى تحضير مصر في الظاهر، وإلى ربطها بفرنسا سياسياً واقتصادياً فـي حقيقـة الأمر. وقد تمثل هذا التوجه بسيطرة اللغة الفرنـسية فـي الأوسـاط الثقافيـة المصرية. وقد عزز الفرنسيون وجودهم الثقافي عن طريق المدارس والبعثـات والترجمة.

لقد ظهرت في عهد محمد علي، ولأول مرة في مصر، مـدارس تعليميـة عامة وكذلك مدارس تخصصية طبية وفنية وحربية على الطـراز الأوروبـي. إضافة إلى ذلك، فقد نشطت في مصر حركة ترجمة جـادة، وعـن الفرنـسية أساساً، ترجمت إلى العربية كتب مدرسية عديدة، علاوة على أمهـات الكتـب الفرنسية الأدبية والفنية المختلفة. لقد كان للمئات من الشباب العربـي، الـذين أوفدوا إلى أوروبا للدراسة، أن يعودوا إلى وطنهم متسلحين بالمعارف العصرية والثقافة الجديدة، ليساهموا في بناء النهضة العربية الحديثة.

وأما في بلاد الشام والعراق وغيرها.. من أقطار آسيا العربيـة الأخـرى، التي كانت جزءاً من الدولة العثمانية، فقد تخلفت عن مصر في التعـرف إلـى المنجزات العلمية الغربية، وإنشاء المدارس والمعاهد، التـي تـدرس العلـوم العصرية.

* * * * *